

كتاب: الأساس في العلاج الجمعي (46) - مقتطفات من مجموعة المواجهة (3)

السويقة: حوار العيون المزحمة بما بها

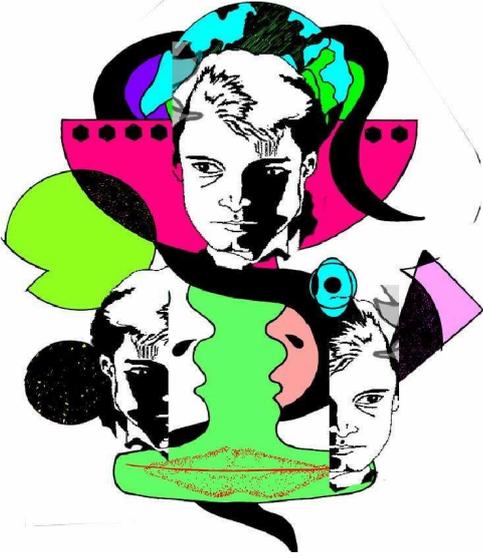
<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD15713.pdf>

د. روكي روكي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2013/07/15

السنة السادسة - العدد: 2145



مقدمة:

قلت أمس أنني حين أعدت قراءة متن هذه القصيدة، فوجئت بهذا التكتيف المركز، والنقلات السريعة. أكثر مما فوجئت به وأنا أشرحها في كتابي "فقه العلاقات البشرية" ثم قلت: "الجانب الآخر الذي وصلني حين قرأت هذه القصيدة من جديد، هو أن الحياة الطبيعية الحقيقية قد تكون بنفس هذا التداخل والتكتيف، وأن أي اختزال أو تحليل لها هو أيضا نوع من الاغتراب أو التشويه، فالسويقة (والسوق، والمولد، ومحطة القطار، وميدان في

حتى شعبي .. الخ) في حركتها المتداخلة المتكاملة تكاد تكون هي الوجه الخارجي لهذه الوجدانات المتنوعة كما تطل من عيون تجلت في هذا التشكيل في تجربة مجموعة المواجهة، تبدأ هذه القصيدة من ذكريات أرض واقعي الخارجي، "من السويقة"، وأعتقد أن منظر السويقة التي كانت تعقد مرتين في الأسبوع في قريتنا، الإثنين والخميس، كان مازال عالقا في وعيي وأنا أكتبها، السويقة هي تصغير سوق غالبا، لكن هل يوجد تصغير للسويقة نفسها؟ بالإضافة إلى السويقة التي كانت تعقد على طرف البلدة في نهاية مبانيها مع بداية حقولها، كانت هناك سويقة مصغرة (إن صح تصغير التصغير) تعقد صباح كل يوم سبت على شريط قطر الدلتا قرب محطته، هي تجمع صغير يعقد قبل طلوع الشمس على قضبان القطار فعلا، ولم يكن معترفا به من كل الناس باعتباره سويقة رسمية!! (مثل سويقة الإثنين والخميس)، كان بمثابة تسهيل مرحلي لتبادل الأغراض والنقود قبل ركوب قطار الدلتا إلى سوق السبت في قرية أكبر على بعد خمسة كيلو مترات (أصبحت هذه القرية مركزا مؤخرا)، سويقة السويقة هذه كانت تعفي بعض الذين عزموا على شد الرحال إلى سوق السبت في القرية الأكبر، من السفر، هذا إذا نجحوا أن يقضوا حاجتهم شراء أو بيعا أو كليهما أثناء انتظار قطار الدلتا ذي الخط الواحد، وهكذا يوفر الذي أتم غرضه قبل السفر على نفسه المشوار، ويعود وقد تحقق مأربه من السوق التمهيدى هذا.

قطار الدلتا كانت له شخصيته الخاصة ومواقفته المتباعدة غير المنتظمة وآثاره في كل من عايشه طفلا، وهو يمثل لطفولتي علامة شخصية جدا لم أستطع أن أنساها، هذا المنظر الذي بدأت به هذا التشكيل كان يثير دهشتي، بل وخوفي، طفلا حين تصر نسوة البلد أن يكون اجتماعهن لتسويق حاجياتهن على شريط القطار ذاته وهن يعلمن تمام العلم أن القطار قادم، ولكن يبدو أن جميعهن (بعكسي طفلا) كن متأكدات أنه لن يدهسن من ناحية، وفي نفس الوقت فإنه ليس له ميعاد ثابت فلا

داعى لوضعه فى الحساب.. ومع ذلك فقد كان يداخلنى خوف من أن تخيب حساباتهن مرة، ويدهمهن القطار على غرة، رغم أنه لا يعرف المباغثة.

كان القطار يأتى ويصفر ويتكع حتى يتفرقن فى مرح وفزع مصطنع، ولا يلبثن أن يعدن كما سبق بعد مروره، وبعد أن يركبه منهن من سوف تواصل السفر إلى سوق السبت حين تقمصت صاحب تلك العيون (أو صاحبها، لست أذكر) وصلنتى زحمة بالغة، ونقلات سريعة، وحركية نشطة حميمة، ومرتعشة، مترددة، وجائعة، سائلة وواحدة، ولكن عندك، هيا إلى المتن أفضل:

والنظرةُ الصاحيةُ الواسعةُ الزحمةُ ،

زى سويقةُ السبتُ، فى بلدنا.

زى القفف الملية حاجات وحاجات،

محطوطه بالذات،

على قلب شريط قطر الدلتا.

كل ما الفطر يصفر، بتلاقى الزحمة اتفضت.

والقفف السودا النسوان، بتشيل القفف البيضا الملية حاجات وحاجات.

ومآ القطر يعدى: ترجع كومة القفف النسوان، القفف النسوان:

تتلخبط على بعض،

كما دقن الشايب.

المرأة فى بلدنا ليست مجرد قفة تحط وتنشال، تملأ وتفرغ، التشبيه هنا لا يُحط بالمرأة لتصبح مجرد قفة، بل أظن أنه يرتقى بالقفة (الشيء) لتصبح كائنا حيا تشارك صاحبها التشكيل.

أظن أن ما جاء بعد ذلك فى هذه العيون هو غير قابل للشرح دون أن يتشوه، بل لعله أيضا لا يمكن استلهامه ليفيدنا فيما نحن بصدده لفهم النفس الإنسانية، شعرت أنى لو حاولت شرح هذه المشاعر المتداخلة المعبرة فى هذه العين كما رسمتها بتقمصى دون أن أقصد، لاضطرت أن أشرح الطب النفسى كله بما فى ذلك علم السيكوباتولوجى والعلاج النفسى معا، إن غاية ما يمكن أن أتوقف عنده آملا ألا يخل بتكامل الصورة كلها على بعضها بشكل أو بآخر، هو بعض الإشارات كما يلي :

إن العين، فى لحظة بذاتها، قد تقول كل شيء معا، فى نفس الجزء من الثانية "كل كلام الدنيا، وف نفس الوقت"، هذه الحقيقة تذكرنا بجهلنا بقيمة هذه الوحدة الزمنية المتناهية الصغر، والتي بلغتنى بشكل رائع من باشلار فى "حس اللحظة"، والتي أعتبرها ثروة العلاج النفسى، الجمعى خاصة، وفى نفس الوقت أتصور أنها هى لحظة التحول النوعى فى أزمت التطور، وبعض خبرات الإبداع، "كل كلام الدنيا وف نفس الوقت"، ثم تأكد لى مؤخرا أن هذه الحقيقة قد وصلت إلى من يمارسون العلاج الجمعى بشكل أو بآخر، فأقروا حقيقة أهمية أجزاء الثوانى حتى الميكروثانية **(أنظر**

نشرة 2-6-2013 ماذا يحدث بالضبط مما هو ضد "جماعة القطيع").

الغوص فى العين فى هذه اللحظة واستيعاب ما بها وما بعده هو ممكن فقط، أما ترجمتها إلى ألفاظ أو إلى أى تشكيل آخر فهو الاستحالة نفسها، هذه المحاولة هى ليست إلا تقريبا لا يمكن أن أكون قد قصدت إليه بوعى كامل حتى أجمعها هكذا، إن الشعر، هو الأقدر على احتواء مثل هذا التكتيف من أى تعريف علمى أو نثرى مجتهد.

هيا نقرأ الفقرة التالية ونكتفى بها حتى نستوعبها بما قصدنا إليه من دعوة للتلقى بشكل آخر

أهى نظرة عينه زى سويقة السبت

فيها كل كلام الدنيا، وف نفس الوقت

فيها "رغبة" على "دعوه"، على "إشمعني"، على "رغبة خوف"،
على "صرخة طفل"، على "حلمة بز"،
على "عايزه اختار"،
و"انا مالي ياعم"،
"مش عايزه ألم"،
على "تفسي أعيش"، "بس ما تمشيش"،
"خليني معاك"، "خليني بعيد"،

التناقض هنا ليس تناقضا بقدر ما هو تداخل حركي جدلي مكثف متضفر، إذ يختلط النداء بالدفع في نفس اللحظة، ويتداخل الألم مع الرغبة.. إلخ إلخ مما يمكن أن يمسح التشكيل كلما تمادينا في التوصيف. (قف. أشعر أن أي مزيد من الشرح سوف يفسد الرسالة)
ينتهي هذا المقطع بإعلان الرغبة في الحياة بالمعنى البسيط، وفي نفس الوقت بالمعنى الحقيقي،

قرار "أن تعيش" هو أصل كل الوجود، وهو قرار يستحيل أن يتحقق بنوعية بشرية حقيقية إلا في وجود آخر، إن مجرد الاعتراف بهذا القرار "قررت أن أعيش بشرا"، يعلن اعترافا ضمنا بأنه لا يعيش هكذا إلا في رحاب وعي بشري "آخر" يقرر نفس القرار،
اكتشفت مؤخرا برغم طول الخبرة دلالة إيجابية "الموقع الاكتئابى" "Depressive Position" الأكثر نضجا على مسار النمو، حتى اعتبرته أنه هو الذى يميز الإنسان الحالى النامى وهو يواصل تطوره ليتحمل مسؤوليته البشرية الأرقى.

الموقف الاكتئابى هو الموقف الذى يعلن نوع العلاقة التى يمكن أن يتميز به الكائن البشرى دون غيره بوجه خاص، ومع ذلك فإنك بمجرد أن تذكر أو تكتب أو تقرأ كلمة "اكتئابى" يذهب فكري إلى ما هو مرض، لهذا سوف أواصل الحديث عنه تحت اسم "الموقف العلاقتى البشرى".

الموقف العلاقتى البشرى:

هذا الموقف هو الذى يضع الإنسان على قمة هرم الحياة التى نعرفها، وذلك بعد أن اكتسب الإنسان الوعى، ثم الوعى بالوعى، كمرحلة أخيرة هى الغالبة الآن.

فهو يعلن أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا فى وجوده، مع إنسان آخر، ويكون هذا الإنسان الآخر هو: مصدر الاعتراف به، وهو مرصد شوفاته، وهو أيضا مصبّ مشاعره المتبادلة مع نفس هذا الوعى، وهنا يبدأ التميز البشرى فى فرض صعوباته الرائعة.

لما كان الإنسان قد اكتسب الوعى، ثم الوعى بالوعى كما قلنا، فقد أدرك أن ثم "آخرا" هو ضرورى لأنسنته، الآخر الحقيقى هو مصدر الحياة الأرقى بموقفه هذا الذى يسمى عادة "الحب".
ثم يكتشف الإنسان فى منطقة ما من مناطق وعيه، ليست ظاهرة على السطح عادة، أن هذا الآخر الذى هو مصدر هذا الحب (الحياة كإنسان) هو هو أيضا مصدر التهديد بالترك، بالهجر، تبعا لطبيعة حركية العلاقة لا أكثر، هكذا يقفز الحذر من هذا المحب الموضوعى فعلا، وهو الموقف الاكتئابى الذى اسميته حالا الموقف "العلاقتى البشرى" وهو الذى يمكن إيجازه على الوجه التالى:

أنا على يقين من أن مصدر وعيى ببشريتى، ذاتى، هو هذا الآخر المحب

أنا لا أستطيع الاستغناء عنه أو عن من هو مثله

أنا على يقين - فى نفس الوقت - من أنه قد يتركنى

أنا سوف أتألم حين يتركنى، بل إننى متألم الآن لمجرد التفكير فى هذا الاحتمال

أنا لن أتركه

أنا لن أتركه بتركنى

أنا أحبه

أنا أمارس معه نفس الدور تماما

هو يحبني

هو يمارس معي نفس الدور تماما

كيف أحفظ بهذا وذلك الآن هنا معا

هذا مؤلم جدا،

لكنه بشري جدا،

وهو أفضل من أى حل آخر، أفضل من العودة إلى الكر والفر (الموقف البارنوى)

وأفضل من الكذب بإسقاط آخر من داخلي بالمواصفات التي لا تهددنى على هذا الشيء

خارجي (الشخصنة)

وأفضل من العودة إلى قوقعتي لاغيا كل آخر (الموقف الشيزيدي)

يا لروعة الألم الحب الرؤية الاستمرار

يا لفخرى بى ساعيا، فرحا، متألما

إنسانا

وبعد

اضطرت لهذا الاستطراد (11) لشرح أبعاد هذا الموقف بهذا الإيجاز الصعب دذبذة هذه العين فى محاولتها الدؤوب للاقتراب، وخوفها المرعب من الابتعاد، دون أن توصف بالتذبذب، اكتشفت من خلال هذه الخبرة مع جماعة المواجهة. حقيقة أبعاد هذا الموقف بكل هذا التكتيف وما كان يمكننى وصفه بأى منهج وصفى تقليدى.

عن الزمن والحركة

لا يمكن أن تفهم إشكالية العلاقة البشرية الناضجة بحجمها وموضوعيتها إلا من خلال بعدى الزمن والحركة "حتمية بُعد الحركة" - بعد ومع الزمن - هى التى علمتني أنه لا علاقة بشرية حقيقية إلا بتفعيل برنامج الدخول والخروج مع ترجيح جانبه الإيجابى الذى يحتم عدم تساوى ذراعى الدخول والخروج،

لا يمكن مسح هذا الموقف إلى ما هو إيجابى خالص، أو ما هو سلبى خالص، إذ يبدو أن المراوحة هى أيضا بين الحركة اقترابا وابتعادا نشطا، وبين التوقف ترقبا وجمودا وخوفا، "خلينى معاك، خلينى بعيد"

عن حركية المسافة أيضا: الفقرة التالية فى القصيدة تركز على ما يسمى "المسافة":

.....

وإذا قلت أنا أهه، أنا جى،

يسمعى كما صُفارة القطر، ويخَاف.

وينط كلام العين جُوّه: فى البطن،

أو تحت الأرض.

وتلقى سوادها وبياضها بيجروا ورا بعض،

زى النسوان اللى بتجرى بقففها.

واما ابعد تانى،

ترجع كل الكلمات الساكنة المليئة ألم وحاجات،
و "تعالى" و "روح" و "قوام" و "استنى"،
"وانا نفسى تقرب .. إلا شوية". "طب حبه كمان"
"يانهار مش فايت !!، أنا خايفة"،
"أنا ماشية".

إن إحياء حيوية المكان هو ضرورة لفهم وتأكيد وتعميق حيوية العلاقة، جنباً إلى جنب مع حركية الزمن، لا توجد علاقة حقيقية بدون مسافة متغيرة، المسافة الثابتة تعلن ضمناً أن العلاقة إما خامدة متجمدة، أو هي غير موجودة أصلاً، أو أن كلا من برنامجي الدخول والخروج والإيقاع الحيوى إما يعملان بطريقة آلية فى المحل، أو هما متوقفان فعلاً أو وظيفياً، أو أنها علاقة التهامية يحتوى طرف منها الطرف الآخر داخله وبالعكس.

فى العلاج الجمعى يستعيد "المكان" قيمته الرحمية الضامة، وفى نفس الوقت قيمته الحركية المرنة، حيث تتحرك المسافات فيما بيننا ونحن جلوس فى مواقعنا تحركاً فاعلاً واقعا يكاد يرى بالعين المجردة.

نكتشف أثناء العلاج درجات الاقتراب من بعضنا البعض وأيضاً أنواعه، ومن حيث المبدأ فلا غرابة أن الإنسان (مريضاً أو غير مريض) قد يربح رعباً شديداً من الاقتراب الحقيقى من إنسان حقيقى من لحم ودم، له وعى ووعى بالوعى، مثله ، هذا هو ما أسميه فى كثير من صورى الشعرية : خطر الحب أو الخوف من الحب، برغم تحفظاتى من الالتباس المحيط بهذه الكلمة (الحب) كما ذكرت مكرراً.

وفى العلاج الجمعى

فى خبرة النمو أثناء العلاج الجمعى تتحرك العلاقات ذهاباً وجيئة طول الوقت بين أفراد المجموعة، وفى نفس الوقت يتواصل الانتماء إلى الوعى الجمعى المتخلق فى وسطنا، أيضاً بحركية "الدخول والخروج" فتتولد من هذا وذاك فرصة أمان نسبية وتدرجياً لا يعود "الأخر" عدواً ولا "منافساً" إلا بالقدر الذى يحدد معالم المتحاورين، ويتولد بُعد جديد فى العلاقة حين يصبح الآخر رفيق طريق عموماً، ومساهم فى تشكيل العلاقة المتخلقة بالوعى الجمعى "المتكون" مما يفتح الباب لاقتحام هذه المنطقة البشرية بديلاً عن لعبة "الكر والفر" تحت أو هام المطاردة، وأيضاً بعيداً عن الحب الناعم اللاغى للآخر برغم زعم وجوده. هذا الرعب من هذا النوع الحقيقى من الحب هو نتيجة الخوف من التخلّى عن دفاع الكر والفر، الذى يوهمنا أنه هو وحده الذى يحافظ على الحياة والبقاء، وعن دفاع عمى الحب الامتلاكى التسكينى الطيار.

وبما أن هذا الخوف من الحب له ما يبرره فى الواقع حيث المجتمع التنافسى ما زال يحافظ على بقاء الأفراد فيه بآليات الكر والفر، فعلى المعالج أن يضع ذلك دائماً فى اعتباره قبل أن يحاول أن يكسر هذا الدفاع الواقى أو ذلك، وهذا ما يحدث فعلاً مع تطور العلاقات الثنائية فالجماعية إلى مستويات لا تستبعد منها كما ذكرنا الوعى الكونى.

توقفت هذه اللقطة هنا وأنا أقرأ هذه العيون متقمصاً عند مرحلة الانتظار دون قفل الباب وهو ما نلاحظه فى العلاج الجمعى حين يظل أحد أفراد المجموعة متحفظاً أو متبلاً لبضعة شهور، لكنه منتبه متابع، منتظم فى الحضور دون أن يبدو أنه يتغير أصلاً، ثم يكتشف المعالج وأحياناً بعض أفراد المجموعة، ولو بعد شهور، يكتشفون انفتاحه بطمأنينة غير متوقعة، فالانتظار الذى انتهت به القصيدة ليس غلقاً نهائياً لباب التواصل.

تنتهى القصيدة نهاية قاتمة، لكنها مفتوحة

والقفف المليانة الغلة الكوسه البادنجان،

الحُبب العطف الخوف العوزان،

تفضي من كله.

ولا يفضل غير قضبان القطر.

زى التعبان الميت.

مستني السبب الجي،

اللى ما بيـجيش.

هذه النهاية تقول إن ما يبدو من استحالة تحقيق النقلة البشرية المنتظرة، مع تزايد ألم المحاولة، قد يبدو مبررا للتنازل عن مواصل المحاولة، فتتسحب كل هذه الحركية إلى المجهول، إلى الداخل، إلى سكون الظلام، إلى حجر التعبان الميت، كل هذا وارد لكنه ليس نهاية المطاف ما دام الإنسان إنسانا مازال به وعى ينبض.

نوع الإنتظار هنا لم يقل تماما بهذه الصورة الظاهرة، فهو لم يترتب عليه انسحاب مطلق أو عودة إلى كهف الدار، استغناء عن زخم السوقية، بل إن صاحب أو صاحبة هذه العيون الحية، نزل قابعة بجوار قضبان القطر حتى لو بدت ثعبانا ميتا، حتى لو قالت "أنا ماشية" فهي لم تمش، وهى لم تعلن أن "السبب الجي" "عمره ما هو جي"، وإنما التعبير يقول أن الإنتظار واعد، وبرغم أن القطر لا يأتى "الآن"، فهو سوف يأتى، وإلا فلماذا استمرار الإنتظار بجوار القضبان؟ إنها أهمية فعل الإنتظار، وليس سلبية التوقف.

فى العلاج الجمعى الذى نمارسه يحق لأى فرد أن يقترح، أو حتى يأمر أثناء تفاعل حميم أحد أفراد المجموعة بالخروج منها حالا، بما يسمى فعلا "الطرد"، مطمئنا إلى سبق إعلان قاعدة تقول: أن من حق المطرود أن يواصل الجلسة رغم أنف طارده، ورغم أنف الجميع، وينصح بل وأحيانا يشترط لبقائه أو لعودته أن يقول لطارده "أنا حاقعد غصبن عنك" وأحيانا "غصبن عن عينك" وكثيرا ما يوجه هذا الخطاب لقائد المجموعة نفسه إذا كان هو الذى أشار أو أمر بطرده، بل من حقه أيضا أن يهّم بطرد طارده، وقد لاحظنا أن هذا قد يصل أحيانا إلى ما يوازي "إعادة التعاقد"، ويؤكد مجمل هذا التفاعل هكذا قرارا جديدا للمريض بالانتماء للجاري بغض النظر عن الموقف أو الأسباب التى أدت إلى تفاعل التوصية بترك المجموعة حتى الطرد، وقد لا حظنا أن ذلك يقوى العلاقة لا يضعفها، شريطة الحفاظ على الاحترام المتبادل طول الوقت، وعلى قواعد "العدل" الأمر الذى نلاحظه برغم ظاهر ما جرى.

III - وهو مستمد أصلا من مدرسة العلاقة بالموضوع Object Relation Theory

"شعن / أوابسينات" ... حصاد مسيرة عقد من الزمن

نمو تعاون أكاديمي يعربي رفيا بالعلوم النفسية

www.arabpsynet.com/Documents/DocAPN10Years.pdf